الفصل العاشر[1]

الإسلام وحماية البيئة

تمهيد:

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات، فهو خليفة الله في أرضه والذي أسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه وأستنطقه حتى شهد بأن الله ربه أي معبوده الحق، كما أنه سبحانه وتعالى هو بارئه ومنشئه كما سخر له كل ما فى السماوات والأرض جميعاً منه وأرسل إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب مبشرين ومنذرين بها ليقوم الناس بالقسط، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيى عن بينه، وحتى لا تكون له حجة بعد الرسل، وكرمه بالعقل وانفرد به من دون سائر مخلوقات الله سبحانه وتعالى لكي يزن به يقدر الأمور من حوله.

وهذا الإنسان بخلقته وفطرته وطاقاته وقدراته كرمه الله في السماء بذكره في الملأ الأعلى وكرمه في البر والبحر فيقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي هذا المعني يحدثنا ابن كثير: يخبر الله تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم وكرامة عظيمة من الله تعالى لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث الشفاعة وحديث موسى عليه السلام، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته.

مفهوم البيئة:

للبيئة مفهوم واسع واستخدامات متعددة؛ فالبيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان فرحم الأم بيئة الإنسان الأولى، والبيت بيئة والمدرسة بيئة والحي الذي نعيش فيه بيئة والكرة الأرضية بيئة والكون كله بيئة.

---

(١) انظر مجلة الإسلام اليوم، العدد ١٤-١٩٩٥م، مجلة دوية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، مقال التربية للدكتورة: آمنة محمد نصر، كلية الدراسات الاسلامية والعربية، لبنان، الاسكندرية ص٦٣-٩٩.

وقد وضع خبراء البيئة تعريفاً محدداً للبيئة عندما اجتمعوا في ستوكهولم سنة ١٩٧٢م وتحت مظلة الأمم المتحدة: وهو البيئة هي جملة الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته.

وبناء على هذا فالبيئة تضم الموارد الطبيعية كالماء والهواء والتربة ومصادر الطاقة والمعادن والنباتات والحيوانات، وإن أي تلويث لهذه الموارد يسمع ويؤثر في خارج حدود البلد التي فيها التلوث، ولعل حادثة إنفجار المفاعل الذري في تشرنوبيل بروسيا، هذه الحادثة أو الكارثة ازعجت جميع دول أوروبا والدول الأخرى القريبة التي يمكن أن يصل إليها آثار هذا المفاعل الرهيب، ولعل سكب النفط وتسربه في مياه الخليج يهدد كل دول المنطقة بالتلوث. ومن هنا كانت أهمية التعاون الدولي عبر الأمم المتحدة أو الهيئات العلمية المختلفة في مواجهة مشكلة التلوث؛ لأننا نعيش في كوكب واحد، ومستقبل البشرية مشترك خاصة في هذه المرحلة التي تشابكت فيها المصالح لسكان هذه الكرة الأرضية بعد تقدم وسائل المواصلات والاتصالات المختلفة بصورة متقدمة حتى أصبحت الكرة الأرضية وكأنها حارة واحدة. ولعل ما نسمعه في هذه الفترة عن ثقب الأوزون نتيجة استخدام الغازات في الصناعة بات مشكلة عالمية أدت إلى تغييرات مناخية في أنحاء العالم تهدد الإنسان والحيوان، فالبيئة بعناصرها وتفاعلاتها مع بعضها تشكل الكون الذي هو بيئة الإنسان والكون بما فيه من مجرات وسدم ومجموعات نجمية ونجوم وكواكب وأقمار ومذنبات ونيازك وشهب..... إلخ، كل هؤلاء يكون نظاماً مترابطاً ومتكاملاً، وأن هذا النظام الديناميكي تحكمه علاقات وقوى محددة دقيقة، ولو أختل بعضها لأثر في حركة هذه المكونات وسبَّب اضطرابات تهدد كل ما فيه أو بعضه؛ فانقلاب مجموعة نجمية على القوى المتحكمة في حركتها قد يؤدي إلى انطلاقها في فضاء الكون الشاسع، وتبعثر مكوناتها أو اصطدامها أو إندماجها ببعضها البعض، وفي هذا ما فيه من خطر على أيه حياة قد تكون في أي من هذه المكونات.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [فاطر: ٤١].

ومن الحقائق العلمية الهامة عن مجموعاتنا الشمسية ان مجرد اختلال كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلى سطح الارض كافٍ لجعل الأرض حارة إلى حد لا يسمح للحياة بالبقاء أو تكون باردة إلى الحد الذي يقضي على الحياة، فسبحان الذي خلق كل شيء بميزان دقيق.

عقيدة الاستخلاف وارتباطها بحماية البيئة:

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات؛ فهو خليفة الله في أرضه فلا عجب أن يكرم الله الإنسان في هذه الأرض بما فيها من طاقات وخيرات سخرها له في البر والبحر من مختلف الألوان والآيات لخلق الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦/٧].

وإذا كان الإنسان مستخلفاً في هذه الأرض؛ فعليه أن يتذكر المالك الحقيقي لهذه الأرض ومن عليها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن مواطن الاستخلاف أيضاً إلى جانب الملك والمال ألا يعبد إلا الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

استخلف الله الإنسان في الأرض وهو عليم بطاقاته وقدراته النفسية والعقلية والعلمية التي خلقها وإن كانت الملائكة لم تتبين كنه ذلك في استفهامها من ربها: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إذن فالإنسان أعظم المخلوقات في هذا الكون وأثمنها؛ لأنه المستخلف من قبل الخالق سبحانه وتعالى، ولكن للأسف أنه قلما يتصرف على ضوء هذه الحقيقة، وبما يتناسب معها سواء مع نفسه أو مع من حوله من بشر أو بيئة، فقد خلقه الخالق العظيم وأتقن خلقه مع هذه البيئة المحيطة به على سطح هذه الكرة الأرضية، ومثال عظيم على دقة الصنع وتناسبها مع البيئة التي وجد عليها، نجده في تكوينه المتميز مع جاذبية الأرض، وهو شكل يعتبر ناجحاً بالمقاييس الحيوية، وما حدث لرواد الفضاء وعدم تناسب البيئة القمرية مع جاذبية الإنسان؛ حيث تبلغ جاذبية القمر سدس جاذبية الأرض، ومغزى ذلك أن الله خلق الإنسان لهذا الكون في صورة دقيقة متلائمة مع البيئة التي يعيش عليها ويعمرها، ولهذا أوجبت المسؤولية تجاه هذه البيئة رعايتها من منطلق عقيدي وخلقي، ومسؤولية الحرص على مصلحته ومصالح أجياله القادمة مع هذه البيئة؛ حتى تبقي بصلاحها لحياة الآدمي كما خلقها الخالق له، وعلى الإنسان ألا ينسي أن أي تدمير لها سواء في تربتها أو في هوائها أو زرعها أو فضائها أو مائها معناه تدمير للإنسان ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ [العنكبوت: ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد وقفت الأمم المتحضرة للدفاع عن البيئة وعقدت المؤتمرات لها، وتقدمت النظريات والأبحاث في كل مجال لصد الأذى عنها، ومطالبة الإنسان في كل مكان بألا يتصرف مع البيئة بمفهوم السيد المطلق يتصرف في إفسادها أو التعامل معها دون مراعاة لحمايتها، وإن كانت الأرض في الماضي امتصت هذه التصرفات غير المسئولة عن سلامة البيئة فكانت تمتص

هذه الأخطاء نظراً لقلة عدد الإنسان في الماضي، ولذلك كانت قادرة على احتمال تصرفات الإنسان الخاطئة وامتصاص أذاه، ولما تزايد عدد الناس وتفاقمت تصرفاتهم المؤذية تجاه الأرض لم تعد هذه الأرض احتمال ذلك دون أي أثر ما يرتكب في حقها من أخطاء وأذى.

نستخلص مما سبق حقائق هامة حول علاقة الإنسان بالكون في ضوء الشريعة الإسلامية تعتبر من الضروريات في حياة الإنسان المستخلف في هذه الأرض:

١- علاقة الإنسان المسلم بالبيئة علاقة دينية وخلقية ورد في شأنها عشرات النصوص من الآيات الكريمة ومن السنة الصحيحة، وهذا ما سوف نسوقه في حينه في ثنايا هذا البحث والتي تقرر أصول التعامل مع البيئة من حولنا.

٢- رعاية الإسلام للبيئة من منطلق عقيدي وهذا الشأن له مدلول هام على رأسها أن الإخلال أو الإفساد في الأرض من أي نوع من أنواع الفساد سواء في البيئة الطبيعية أو الاجتماعية يعتبر مخالفاً للشرع يعاقب عليه صاحب ومالك هذا الملك.

٣- البعد الأخلاقي في التعامل مع البيئة مسألة ضرورية من أجل استقامة الحياة وسير نظام الوجود سيراً محكماً ملتزماً بأسبابه ومسبباته، وأن على الإنسان أن يدرك تمام الإدراك أن المالك الحقيقي لهذا الكون هو الله سبحانه وتعالى، وأننا مستخلفون فيها من قبله تعالى فلابد من أن يراعى الإنسان القوانين الخاصة بحماية هذا الكون والتي فرضت من قبل مالكه الحقيقي سبحانه وتعالى إذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة التي يقررها الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة لتجنب كثير من الويلات اللا أخلاقية التي لحقت بالبيئة مثل الحروب الذرية والكيماوية التي استخدمت في الحروب المختلفة، والتاريخ شاهد على عدد كبير من هذه الحروب التي جاءت بمثل هذه الكوارث البعيدة عن الخلق القويم تجاه البيئة والإنسان الذي يقطنها.

٤- ربط الثواب والعقاب لرعاية الإسلام للبيئة وتوقيع الجزاء والعقاب لمن يفسد في الأرض فيقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

٥- الإسلام أكد وحض على مكانة الإنسان، والعالم الذي يصل بعلمه إلى معرفة آيات الله في الكون والأرض والفلك والطب...الخ وتوظيف هذا العلم إلى إدراك قيمة نعم الله بهذا التسخير الإلهي للإنسان يقول تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج/٤٦)، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

٦- في ظل هذه العقيدة لابد أن نفهم فهماً صحيحاً بكل عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة مع العمل الجماعي الجاد؛ لحماية هذه البيئة وضمان استمرارها موطناً مقبولاً للحياة في الحاضر المستقبل.

التوازن في خلق الله للكون:

كرتنا الأرضية مجرد كوكب في المجموعة الشمسية تتكون كبيئة من عناصر أساسية هي: الهواء والماء والقشرة الأرضية ومما في باطنها، والنبات والحيوان والإنسان والطاقة الشمسية التي تصل إليها، ويمكن أن نضيف لهذه حركة الأرض حول الشمس وعلاقتها بالقمر.

وتتفاعل هذه العناصر وما يتفرع عنها معاً تفاعلاً معقداً متشابكاً ولكنه محدد، وينتج عن ذلك كون هذه الكرة بيئة صالحة للحياة ولاستمرارها وهو الأهم.

ومن المتعارف عليه عملياً أن البيئة تتجزأ إلى بيئات أصغر، وكل بيئة صغيرة ككل بيئة كبيرة مكونة من العناصر نفسها، وهي إن كانت محدودة الحجم وواضحة الحدود تكاد تكون شبه مستقلة إلا أنها ليست مستقلة؛ ذلك لأنها تتأثر بالبيئات من حولها وبالبيئات الأكبر منها، والتي

تكون هي جزءاً منها تتفاعل مع كل هذه تفاعلاً مستمراً، ومن أهم مميزات أية بيئة صغرت أم كبرت أنها متزنة اتزاناً مرناً رغم كثرة العوامل والعناصر الداخلة المؤثرة فيها. ولنضرب لذلك مثالاً فلو حدث لأي سبب كان أن قطعت النباتات الباسقة أو ماتت لتغير الاتزان السائد في تلك البيئة، إذ عندما يصل الضوء ساطعاً حيث كان الظل تتأثر النباتات الصغيرة التي كانت تنمو فتموت وينمو غيرها من الأنواع المحبة للضوء، وتهرب أو تموت الحيوانات التي تسكن هناك محتمية بالظل، وتسكن البيئة حيوانات غيرها من التي لا تعبأ بالضوء أو تفضله، وكم من مرة حدثت كوارث للبيئة في تناسق النباتات مما قضي على توازنها وتعايشها مع ما فيها من وحدة متكاملة، فاتزان أية بيئة تحكمه العوامل التي تحدد البيئة، وتحد من طغيان عنصر فيها على الباقين، وينطلق هنا المثل الغربي القائل بأن السلسلة لا يمكن أن تكون أقوى من أضعف حلقة فيها.

فالتغيرات في البيئة دورية كما تكون في بعض الأحيان غير منتظمة، ولكن الغالب أن هذه التغيرات لا تسبب إخلالاً بالاتزان الديناميكي في البيئة، ولا يحدث التشفير الجذري إلا في الكوارث، وحسب حجم الكارثة يمكن بعد فترة من الزمن لا تلبث البيئة أن تصلح آثاره وتعود سيرتها الأولى من التوازن.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر/٤٩)

يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

هذا هو خلق الله للبيئة وما فيها من مخلوقات سواء في الأرض أم في السماء، نجد كل ما خلقه وأبدعه الصانع فيه الاتزان والتوازن، وأن نظرة تأمل ودراسة إلى ما وصل إليه العلم الحديث، وما قاله أكبر العلماء عن دقة هذا الكون العظيم وكيفية خلقه بهذه الصورة البارعة التي إن اختلفت عنها لاختفت الحياة عن هذه البسيطة؛ تثبت لنا أن وراء دقة هذا الكون وروعة نظامه واحداً أحداً لا يشاركه في ملكه إله آخر: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

يقول دكتور كريس موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك وعضو الجمعية الملكية البريطانية في كتاب له ترجم إلى العربية بعنوان (العلم يدعو للإيمان Man does not stand alone):

إن الشمس التي هي مصدر الحياة تبلغ درجة حرارة مسطحها ١٢,٠٠٠ درجة فهرنتهيت، وكرتنا الأرضية بعيدة إلى حد يكفي لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي لا بأكثر منه، وهذه المسافة كان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفاناها، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية زادت عشرين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً.

ويستطرد في كتابه قائلاً: والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلاً في الثانية، ولو أن معدل درواتها كان مثلاً ستة عشر ميلاً في الثانية؛ فإن بعدنا من الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا، ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنا تجمدنا، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رماداً من زمن بعيد، وسبحان الخالق العظيم الذي خلق كل شئ فقدره أحسن تقدير: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

ويقول ايضاً دكتور موريسون: ويبعد القمر عنا مسافة ٢,٤٠٠,٠٠٠ ميل، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين بوجود القمر، والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن؛ بل أن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو

الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر، ويبدو لنا ان كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مسافة المحيط كلها عدة أقدام، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية، ولو أن القمر يبعد عنا خمسين الف ميل مثلاً بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة كانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم.

سبحان الخالق العظيم الذي خلق كل هذا وسخره للإنسان المستخلف في الأرض: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، يقول تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويواصل دكتور كريس موريس حديثه حول خلق الله للكون بهذه الصورة الرائعة والتي نجد القرآن الكريم أشار إليها منذ أن نزل فيقول: لو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة بهذه الدرجة لكان القطبان في حالة غسق دائمة، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوباً مكدساً في طريقه قارات من الجليد، ولتكون أيضاً بركان من الملح الأجاج ولتفرطح الاستواء وانخفض المحيط بعرض مساحات شاسعة من الأرض، ويقلل من هطول المطر في جميع أرجاء العالم مما ينجم عن ذلك عواقب وخيمة.

كذلك لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات

أو الإنسان أو الحيوان، والحقيقة أننا لو أردنا أن نتتبع ما كتب حول دقة صنع الخالق لهذا الكون في سمائه وأرضه لاحتاج الأمر إلى مجلدات، ولكن سقت هذه الشذرات مما كتبه العلماء. لكن أوضح حقيقة هامة يجب على الإنسان المسلم إدراكها في تعامله مع بيئته التي خلقها له الخالق فأحسن خلقها ودقق في صنعها من أجل أن نصونها ونحميها؛ لا من أجل العبث فيها كما يحدث الآن من كوارث بشعة من صنع الإنسان ضد البيئة ومكوناتها، ولذلك فإن الشريعة الإسلامية تربط حماية البيئة بالعقيدة؛ لأن مكونات البيئة ما هي إلا آيات الله في أرضه ليرينا الله جلاله وقدرته فيها.

ولذلك فإن رعاية البيئة من الكوارث سواء كانت من فعل عبث الإنسان أو عدم مراعاة أصول التعامل معها، يجب على البشرية أن توليها حق الرعاية سواء بالعلم والبحث عما يدعم مواردها الطبيعية أم حسن استعمالها أو طريقة علاج الموارد بالصورة التي لا تؤذي الإنسان، فمثلاً المعادن التي تستخرج من الأرض فهي محدودة، وعليه أن يتعامل في استخراجها بتدبر وحذر، ومن هنا وجب على الإنسان أن يحسن استغلالها واستعمالها، وألا يقف عند مصلحته المباشرة، وأن ينظر إلى أن هذه البيئة بثرواتها له هو ولأحفاده من بعده حتى يحرص على توازن هذه الثروة قبل أن يقضي عليها.

كما يجب عليه دائماً البحث عن مصادر جديدة لهذه الثروات ليس في الأرض اليابسة فقط بل تحت البحار والمحيطات وفي باطن الأرض. كما يجب التفكير دائماً في إعادة تصنيع والاستفادة من المعادن المصنعة التالفة.

تنظيم الإسلام لقوانين البيئة في حمايتها وتوزيع ثرواتها:

اعتني الإسلام بالبيئة بكل معانيها وأبعادها سواء ما يخص الأرض وقوانين التعامل معها، أم علاقة الإنسان بها في حالة تملكها أو رعايتها والحرص عليها من كل أذى يصيبها نتيجة عبث الإنسان مع رعاية العلم والعلماء الذين يسعون للترقي في العلم، لكي ينهضوا بالبيئة بكل أنواعها وأبعادها سواء فيما يخص الإنسان أم مكونات الكون من سماء وأرض وبحار وجبال....الخ، وأفرد فقهاء الإسلام لقوانين الملكية الجماعية والفردية العديد

من أبحاثهم واجتهاداتهم للوصول إلى أفضل استعمال للبيئة، وصيانة التعامل معها فاهتم الفقهاء بتعريف الملكية ومدى التصرف والانتفاع بها على وجه شرعي، وتشمل الملكية الفردية والملكية الجماعية مع التأكيد على حسن الانتفاع الكامل سواء للمالك أو للأرض المملوكة يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ويؤكد الفقهاء على أن الإسلام قد قرر الحقوق ومنها حق الملكية محدودة بأوامر الشارع ونواهيه إجتناباً للهوي والنزعات الفردية، ولكي لا تتخذ هذه الحقوق وسيلة للأضرار بالأفراد أو بالأراضي أو بالبيئة يصوره فيها استبداد بالأفراد أو بالأرض، ومن هنا كانت الملكية في الشريعة الإسلامية وظيفة اجتماعية، وهذه الحقيقة الشرعية تأكيد على علاقة الجماعة بالأرض ومدي عناية الإسلام بتنظيم هذه العلاقة:

- علي كل إنسان أن يدرك وظيفته الحقيقية في هذه الأرض، وحقيقة الإستخلاف وليس الاستخفاف أو الاستبداد أو عدم رعاية البيئة والحرص عليها كما سخرها لنا خالقها ومالكها الحقيقي هو الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: ١٨].
- ذهبت الشريعة الإسلامية في تكييفها لحق الملكية إلى أنه ليس حقاً مطلقاً منح لصاحبه ليستأثر به في تحقيق مصلحته الشخصية علي نحو مطلق، بل صورت هذا الحق على أنه نوع من الخلافة عن المالك الحقيقي وهو الله، وبذلك فعلى الإنسان أن يراعى في استعماله لهذا الحق الغرض والحكمة التي من أجلهما استخلفه الله في ملكه[1]، فالفقهاء ينظرون إلى أن حيازة الشخص للأموال والثروات إنما هي نوع من الخلافة عن المالك الحقيقي لكل ما علي ظهر الأرض، وما وصلت إليه يد الإنسان،

(١) شرح التلويح علي التوضيح، التفتازاني، الموافقات للشاطبي.

وذلك ما يدل عليه قوله تعالي: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ويؤكد الإمام الشاطبي وغيره من الفقهاء على أن الولاية العامة للناس علي هذا المال إنما هي خلافة عن مالك السماوات والأرض وما فيها، وأن اختصاص الإنسان بشئ منه، نتيجة سبق استيلائه أو وضع يده، لم يكن في إطار هذه الولاية ألا نتيجة وثمرة لها، ويترتب على ذلك أن كون الملكية خلافة يستتبع اعتبارها وظيفة اجتماعية، لاحقاً مطلقاً.

كما يجيز الشارع لولي الأمر أن يتدخل عندما يسئ الناس تدبير أموالهم وذلك عند اختزان المال، أو ترك الأرض بوراً بدون زراعة أو إهمال في رعايتها، كما يجيز له التوصية والإرشاد عن طريق التنمية والإنتاج والتجارة والصناعة والزراعة الملائمة للصالح العام، حيث يحدث أن يميل مالك الأرض إلى زراعة نوع معين من المحصولات لأنه أكثر ربحاً، وأن تكون فيها ضرر اجتماعي أو أذى للأرض، فتوجيه الانتاج والاستثمار وجهة رشيدة بحسب حاجة المجتمع ومصلحته، من المسائل الهامة التي اهتم بها الفقهاء في أبحاثهم[1].

فالتعسف في استخدام حق الملكية في الأرض مما يؤدي إلى أذى البيئة أو الواقع الاجتماعي والاقتصادي للإنسان، من المسائل لهامة التي اهتمت بها الشريعة الإسلامية والتي زخرت بالقيود التي تصون عدم استبداد المالك فيما يملك، مما ينتج عنه ضرر بالجيران، وهي تلك الفكرة التي نادي بها القضاء الفرنسي، ونص عليها المشرع المصري في التقنين المدني الجديد في المادة ٨٠٧، وقد أورد فقهاء الشريعة الإسلامية كثيراً من التطبيقات لهذه الفكرة، حيث ذهبوا إلى أنه لا يجوز المالك أن يتخذ من داره حماماً من شأنه انبعاث الدخان الذي يؤذي الجيران، وكذلك إذا بنى رجل طاحونه خيل وكان من شأنها إصابة الجار بأضرار ناتجة من

(١) الشيخ علي الخفيف، الملكية في الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية، ٦٧-٦٩.

روائح الخيل ووضم البهائم ومن الأصوات المزعجة الناشئة من إدارة الطاحونة فإنه يؤمر شرعاً برفع الطاحونة و منع الضرر[1].

وكذلك إذا غرس المالك اشجاراً في ملكيته فامتدت أصولها أو فروعها فوق أرض الجار، فإن المالك يلزم بإزالة الضرر الناتج منها، كذلك إذا قام المالك بإقامة بناء من شأنه أن يسد نافذة بيت جاره، بحيث أنه صار بحال لا يقدر على القراءة معها بسبب الظلمة فله أن يكلف بإزالته للضرر الفاحش.

فالإسلام يقدس احترام الواقع الاجتماعي للإنسان، ويحترم حقه على أخيه الإنسان سواء في حرمة الجيران وعدم إيذائهم بأي أذى في أرضه أو في ماله أو حق الحياة بدون قلاقل أو مضايقات يسببها الجار لجاره، فعن رسول الله ﷺ: **(لا يؤمن عبد حتي يأمن جاره بوائقه)** واوصي جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالجار حتي كاد ان يورثه.

ونخلص إلى عدة قواعد وضعتها الشريعة الإسلامية في تنظيم حماية البيئة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان:

- حرم الإسلام جميع الأسباب والمصادر التي تؤدي إلى تراكم رؤوس الأموال بابتزاز الناس أو غشهم أو التحكم في ضروريات حياتهم، حيث حرم التلاعب في التعامل واحتكار المواد الأساسية للتحكم في أسعارها، أو احتكار سلعة معينة في الصناعة أو التجارة إذا كان هذا الاحتكار يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين، كما حرم الربا والرشوة واستغلال النفوذ، وأجاز مصادرة الأموال التي تأتي عن طريق غير مشروع. وواضح أن جميع هذه الطرق من شأنها تحقيق التوازن والمساواة والقضاء علي الفوارق الكبيرة بين الأفراد. وقد ذهب جانب من الفقه إلى أن الشريعة الإسلامية أجازت إلزام المالك بأن يبيع بأسعار محددة بواسطة المشرع، بحيث أنه إذا خالف شروط التسعير الجبري يعتبر مقترفاً جريمة تستوجب التعزير؛ لأن

(١) الفتاوي المهدية.

القول بغير ذلك فيه ضرر كبير بالمصلحة العامة، قد يؤدي إلى التلاعب بأقوات الناس في الأوقات الحرجة.

- كما يقاس علي ذلك كل من يمتنع عن بيع ما أوجب وليُ الأمر عليه ببيعه فإنه يؤمر بالواجب ويعاقب علي ترك البيع أو اختزان السلع لاحتكارها وتحقيق ثراء من ورائها[1].
- نظام الميراث في الإسلام كما نظمته الشريعة الإسلامية، نظام حكيم يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً يحول دون تضخمها، ويقضي علي تراكمها وتركزها في أيدي قليلة، بل علي العكس يساعد علي انتشار رؤوس الأموال وتجزئتها إلى ملكيات صغيرة متساوية بين الكافة.

وهذا النظام في الشريعة الإسلامية يعود على الأرض بالعناية وحسن الرعاية، ويكفل لأكبر قاعدة من الورثة الحصول علي قطع من الأرض تكون مصدر رزقهم فيعتنون بها أكبر عناية، وهذا التشريع فيه رعاية للبيئة وحماية لها، من حصرها في أيدي فرد واحد يتسلط فيها ويستبد بالعباد.

- ومن رعاية الإسلام للبيئة الاجتماعية نظام الضرائب التي فرضها علي فروع النشاط وموارد الدخل المختلفة مثل الخراج والجزية والجمارك وضرائب الزروع والعشور وعروض التجارة ومختلف نواحي الاقتصاد بما يكفل العدالة الاجتماعية لجميع الناس، ويكون مردود ذلك الخير والنماء لبيئة من حولنا بأشكالها المختلفة.
- أوجب الإسلام علي الأغنياء الانفاق على أقاربهم من العاجزين، كما أوجب على أهل كل حي أن يعيشوا بعضهم مع بعض في حالة تكافل وتعاضد، إلى درجة أن ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى مسؤولية البلد الذي يموت أحد أفراده جوعاً، فيؤدي أهلها جميعاً الدية متضامنين كأنهم شركاء في موته[2].

---

(١) ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

(٢) د. محمد يوسف موسى، النظرة الاجتماعية للشريعة الإسلامية.

- أوجب الإسلام الرعاية والإنفاق من بيت المال على الشيخ الزمن، العاجز عن الكسب والشيخ الفاني وغيرهما. ولم يفرق الإسلام في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين.
- نظام الاقتطاع والحجز من الأموال مثل زكاة الفطر، وأضحيات الأعياد والهدي الذي يستحب للحجاج أسباب هامة في تقييد الثروات الفردية باعتبار بعضها يقترب من منزلة القرض، مثل زكاة الفطر بحيث تكون حصيلته مرتفعة.
- كما إن الكفارات في الإسلام جزاء بعض الخطايا والمعاصي تحدث تاثيراً غير مباشر على نظام الأموال مثل كفارة اليمين وكفارة الإفطار، وكفارة الظهار، وبعض كفارات الحج حيث تتمثل هذه الكفارات في إخراج فدية من الأموال أو المحاصيل أو التصدق علي الفقراء.

يتبين لنا مما سبق أن علاقة الإسلام بالبيئة في باب الملكية له بناء عقيدي خاص من حيث أن الملكية الحقيقية لله الخالق الواحد، وأن الاستخلاف فيها يتم بتشريعات قويمة راعى فيها الخالق الدقة والعدالة بين البشر حتي يسود البناء الهادف لتنمية الموارد والنهوض بالبيئة، فأقام الشارع الحدود لحق التملك وما يشمله من أموال وثروات، ووضع له الضوابط التي من شأنها تقليل الفوارق بين طبقات المجتمع، ومع الحق الشرعي في مصادرة أموال الأغنياء غير المشروعة والناشئة من مصدر حرام أو فيه أذى لأفراد المجتمع يصادر لصالح الدولة، ومن ثم يعود بالنفع على مستحقيه من المحتاجين والفقراء.

ويخبرنا الشيخ الخفيف عن هذه القاعدة الشرعية من أن الشرع أباح للإمام أن يتصرف - عند الضرورة التي تقدر بقدرها- في توزيع الأموال العامة علي وجه يحقق التوازن الاقتصادي بين الطبقات، وإن أدى ذلك إلى أن يخص ببعض الأموال طبقة دون أخرى، حيث سن ذلك الرسول ﷺ بوحي من الله تعالى حينما منح جميع أموال الفئ من بني النضير

للمهاجرين خاصة، ولرجلين فقيرين من الأنصار، ليقرب بذلك بين ثروات الأنصار، ويحقق شيئاً من التوازن في ملكية الأموال بين هذين الفريقين اللذين كان يتألف منهما المجتمع الإسلامي في ذاك الوقت[1].

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى رعاية الإسلام لنظام الصدقات المستحبة، والذي فيه تنمية للموارد البشرية وحمايتها من الضياع، بل وربما عن طريق التشرد والإجرام. فهذه الصدقات تشفي النفس المحتاجة من الحقد علي الأغنياء، كما فيها صيانة للفقير والمحتاج من الإنهيار لشدة العوز، وتفتح باب الارتزاق، وربما يخرج بهذه الصدقة إلى مستوى كفاية الحاجة.

فقد حبب الإسلام إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء حتي إن الله نعت الفقراء بعياله ليؤكد علي عظم العطاء لهم، ثم جعل اكتناز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله من كبائر المعاصي يقول عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤- ٣٥].

فالإسلام حرم كنز ثروات الأرض وحجبها عن استفادة الإنسان بها كل حسب موقفه سواء في إعطاء الفقراء، أم تنميتها بما يعود على رخاء البشرية، وبالتالي ينعكس هذا علي رعاية الإنسان لمتطلبات البيئة من تنمية وازدهار.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الإسلام يربي الإنسان المسلم على التعود علي البعد عن الأنانية والبخل والشح، وهي أمراض نفسية بشرية إذا عولج منها الإنسان يصبح إنساناً سوياً، والإنسان السوي يكون معطاءاً ومعتدلاً في التعامل مع البيئة الإنسانية من حوله، ومع موارد الطبيعة التي يرزق الله الإنسان منها الكثير من ثروات الأرض أو البحر، وهي ثروات

(١) الشيخ علي الخفيف، الملكية في الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعة، ٢٩-٣٠.

هائلة تستطيع إسعاد البشرية إذا حسن استغلالها والتعامل معها بالقانون الإلهي الذي يحرم الإسراف والبذخ في أي أمر من أمور الحياة.

تلويث الأرض وموقف الإسلام منه :

الأرض تشكل أقل من ثلث مساحة الكرة الأرضية، وأن جزءاً لا يستهان به من هذه الأرض غير صالح لمعيشة الإنسان، والجزء الصالح منها بدرجة جيدة لمعيشته فهو صغير نسبياً إذا قيس بالزيادة السكانية التي نراها من حولنا، والأرض باختصار هي موطن الحياة الأساس بالنسبة للإنسان فهي تمده بالمأكل والمشرب والملبس، ولذا وجب عليه أن يعرف حقها وقدرها، وأن يصونها من أي عدوان، وأن يركز علي ما فيها من نعم وخيرات أودعها الخالق له، فيقول سبحانه وتعالى: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾** [عبس: ٢٤- ٣٢].

ثم يبين الخالق سبحانه في صيغة هذا التساؤل كيف خلق النعم للإنسان: **﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾** [الغاشية: ١٧- ٢٠].

ثم يلفت نظر المخلوقين إلى أهمية آيات الخلق والإبداع الإلهي، سواء لخلق الإنسان أم خلق الأرض فيقول سبحانه: **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾** [الذاريات: ٢٠- ٢١].

ويقول تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الأعراف: ١٨٥]،

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)﴾ [ق: ٦- ٨].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

هكذا خلق الله الكون بسمائه وأرضه لكي يستغله الإنسان أحسن استغلال، ويسعي فيه بالعلم النافع الذي كرم الإسلام به الإنسان وأعلى من مكانته، وجعل الإنسان العالم من ورثة الأنبياء، ولذلك حمل العلماء أمانة صيانة هذه البيئة من الأذى وتقويم ما ينفعها ويعوض ما يصيبها من سوء استخدام الإنسان، كما أوجب عليهم التعامل مع ما سخر الله للناس في هذا الكون وفق القوانين والسنن التي تحكمها، وهذا بالضرورة يحمل الإنسان علي معرفة هذه القوانين على أسس علمية ومعرفة صحيحة.

إن تنبيه الحق تعالي في الآيات السابقة له دلالة عظيمة لم تقف عند حد لفت النظر فحسب؛ بل ليرينا مدي الترابط الوثيق بين الإنسان والبيئة من حوله وما يجب علي الإنسان من التحلي بآداب وأخلاق التعامل معها.

ولكن من المؤسف حقاً أن هذا الإنسان لم يراع حق بيئته: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]. فإن تصرفاته في الواقع العملي توحي بعكس ما أراده له الخالق في استخلافه لهذا الكون، وربط هذه الرابطة بعقيدة العبادة لله، وجاءت سلسلة التصرفات الفردية والجماعية في إفساد الأرض وجعلها أقل قدرة على احتضان حياة الإنسان، نتيجة إخلال التعامل معها مما أدى إلى خلل الاتزان البيئي الذي خلقها الله عليه.

أخذ الإنسان في استقطاع مساحات واسعة من البيئة الطبيعية والزراعية من أجل امتداد المدن وشق الطرقات وبناء المطارات وإقامة المصانع وحفر المناجم، وغيره من المنشآت التي جارت على المساحات الخضراء التي هي مصدر الرزق ومنحه الخالق للمخلوقين: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧)

وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق: ٧- ١١].

ويقول تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]. ويحذر خالق الأرض سبحانه وتعالى الإنسان من الإنسياق والتمادي في الغرور في تعامله مع الأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١].

ويؤكد القرآن الكريم علي مكانة الأرض وقيمتها وإنها آية من آيات الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

ويذكر الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه هو وحده الرازق فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ويحفل القرآن الكريم بعشرات الآيات التي توضح مكانة الأرض وما تحتوى عليه، وكيف يجب على الإنسان أن يراعيها ويصون نعمة الخالق الذي خلقها له بضمير وعناية لحاضره ولمن يأتي من بعده من ذرية.

ولكن تزايد أعداد البشر والتطور التكنولوجي انعكس كل هذا على البيئة، وظهرت أنانية الإنسان في الرغبة في الكسب السريع في النمو في المشاريع الكبيرة التي جاءت على حساب الأرض الخضراء، ثم اتضح بعد ذلك السلبيات الجانبية الكثيرة لهذه المشاريع في إفساد البيئة وعدم

صلاحيتها في مد الإنسان بالحياة الرغدة التي أرادها له الخالق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠] ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، ولكن الإنسان أخل بهذا الوزن والتوازن في البيئة التي خلقها الله عليها.

تلويث الأرض بالفضلات المعدنية والكيماوية والإشعاعية المتزايدة باستمرار مع تراكمها؛ صار يؤثر في تركيب التربة الكيميائي ذات الخلق الموزون.

ولقد أثبتت الأبحاث في مجالات علم النبات أن بعض النباتات تختزن في خلاياها وأنسجتها كميات من المواد الكيماوية السامة التي تمتصها من التربة الملوثة، وهذه تنتقل بدورها إلى الحيوان والإنسان وتتجمع في أجسامها مسببة سلسلة من الأعراض المرضية التي انتقلت إلى الإنسان عبر أكله للحوم الحيوان والطيور.

ولولا رحمة ربك لأصاب البشرية فزع كبير مما نحن فيه، فقد اودع في الإنسان جهاز المناعة لمقاومة هذه السموم الجارفة والزاحفة على الإنسان من استهتار ببيئته والعبث بمقدرات صحته وطعامه وشرابه وهو لا يدرى أنه يدمر نفسه وأجياله القادمة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

فجهل الإنسان التعامل مع البيئة من منطلق عقيدي، وتصور نفسه السيد الأوحد الذي لا يسأل عما يفعل أنعم الله عليه بهذه الأرض جعله يتصرف معها بغطرسة وعدم مراعاة للقيم الإيمانية في علاقته بهذه الأرض المستخلف عليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وتحض السنة النبوية الإنسان على التعامل مع البيئة بصورة نظيفة وتمنعه من إلقاء الفضلات أو الأذى الذي يؤثر في نظافتها ونقائها، عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(اتقوا اللاعنين)** قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله قال: **(الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم)**.

وعلى الرغم من بداوة الحياة وبساطتها وافتقادها مقومات الحضارة الكائنة في هذا المضمار؛ رغم ذلك كان تحذيره عليه أفضل الصلاة والسلام للناس من قضاء حاجاتهم في طريق المارة أو في مكان ظليل حتى لا يحبس الناس عن الاستفادة به.

كما حذر ﷺ من قضاء الحاجة في مصادر المياه ويلوثها كما يحدث للنيل أو غيره من الترع والقنوات.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **(لا يبلون احدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)**، وكما نهى ﷺ عن تلويث مصادر الماء أو قضاء الحاجة في طريق المارة شدد على من يقطع شجرة أو يحارب الخضرة، وعن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)**. سئل أبو داود عن معنى الحديث فقال: هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار (أبو داود، ج٤، ص٣٦١).

ثم يحض رسول الله ﷺ على الغرس والزروع، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)** (رواه البخاري ومسلم والترمذي).

ليس هذا فحسب بل يأمر المسلم: **(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يقوم حتى يغرسها فليغرسها)** (رواه أحمد)، ثم إماطة الأذي عن الطريق ولو برفع حجر فله أجر، ففي الحديث الصحيح: **(بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذي عن الطريق صدقة)** (رواه البخاري).

الزحف الصحراوي:

من مشاكل البيئة الخطيرة الزحف الصحراوي ومعناه زيادة رقعة الأرض القاحلة على الأرض الخضراء، ويرى بعض العلماء ومنهم (بيفريل ميفر) إن مساحة الأراضي القاحلة جزئياً وكلياً في العالم تبلغ ٣٦٪ من مساحة الأرض الإجمالية، وهذه نسبة مرتفعة فما بالك والزحف الصحراوي في ازدياد، وهو يعتبر من أكبر نكبات المجاعة التي يعاني منها سكان قارة أفريقيا ومناطق كثيرة من بلاد العالم.

وقد برزت هذه القضية في مؤتمر هيئة الأمم لدراسة ظاهرة الصحراوي الذي عقد في نيروبي عاصمة كينيا في سبتمبر ١٩٧٧م.

ومن التقارير العلمية التي قدمت في هذا المؤتمر تبين أنه خلال نصف القرن الماضي ابتلعت الصحراء الكبري في أفريقيا ستمائة وخمسين ألف كيلو متر مربع من الأراضي والمراعي المتاخمة لحدود الصحراء الجنوبية.

كما تبين من صور الأقمار الصناعية أن الصحراء تزحف على دلتا النيل الخصبة بمعدل ١٣ كيلو متر في السنة، فإذا عرفنا أن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في مصر لا تزيد عن ٤٪ من مجموعة مساحة الدولة؛ اتضح مدى فداحة الخطر الذي يهددنا، أضف إلى ذلك نسبة تزايد السكان بصورة خطيرة.

وفي السودان الذي ينظر إليه على أنه يمتلك أكبر مصدر للغذاء في مجموعة الدول العربية؛ تتردد الشكوى من قلة الغذاء، وفي الجزائر مثلاً تزايد زحف الصحراء عليها وعلى أراضيها الزراعية.

وفي إقليم راجستان في الهند تزايد الغطاء الرملي بنسبة ٨٪ في مدى ثمانية عشر عاماً، وفي تشيلى تحولت أراضٍ كانت مراعي جيدة إلى صحاري لا تحوي غير شجر الصبار وبعض العشب لا قيمة لها إلا لغذاء الماعز، وهذه نماذج من كثير في أكبر قضية تحاصر البيئة بالقتل والدمار، وأنه على الأمم أن تقاومها بوقف التصحر بالوسائل العلمية المختلفة.

ومن هنا يتضح رعاية الإسلام للأرض ولزراعتها، حتى وإن قامت الساعة وفي يد أحد الناس فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فعل لتؤكد على رعاية الإسلام لاستمرار حياة الأرض مخضرة بالخيرات التي تمد الإنسان بالحياة إلى آخر لحظة من عمر البشرية.

تلويث المياه رغم ندرتها:

مشكلة المياه من أعقد المشاكل التي تتنازع حولها الآن الدول؛ لأن الماء محدود إلى حد كبير على هذه الكرة الأرضية، ومعظم الماء في هذه الكرة الأرضية مالح وغير صالح لاستعمال الإنسان لا في الشرب ولا في الصناعة ولا في الري، ومن هنا فإنه من المحتم أن تعيد الدول بأفرادها أصول التعامل الجيد لهذا المصدر الذي فيه حياة كل شيء.

والإسلام في منهجه في التعامل مع جميع ألوان الحياة يحث على البعد عن الإسراف والتبذير حتى إن الله سبحانه وتعالى شبه المبذرين بإخوان الشياطين **(وكان النبي ﷺ يتوضأ ويغتسل بالصاع)** (أخرجه الدرامي).

وقد بين القرآن الكريم في عشرات الآيات تكوين المياه واهميته في إحياء الأرض وإنباتها وجعل من الماء كل شئ حي يقول تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥)﴾ [النبأ: ١٤- ١٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ربط الإيمان بالنظافة في الإسلام وأثر ذلك على البيئة:

ربط الإسلام الإيمان بالنظافة ومن أركانه مثل الصلاة والحج ما لا يتم إلا بالطهارة، والنظافة بالماء الطاهر النظيف الخالي من اي نجس يلحق به، وهذه العقيدة في الإسلام لها أعظم تدريب لرعاية مصادر المياه من تلويثها والعناية بالحفاظ عليها وتركها نظيفة، ثم عناية الإسلام بالعلم والعلماء يعتبر أكبر دليل على حث الإسلام في السير قدماً في الأبحاث العلمية لجميع مصادر البيئة، ومن بينها العناية بتنقية المياه وتحليتها واستخدام الوسائل العلمية لهذا الغرض، حتى تكون صالحة للإنسان الذي استخلفه الله سبحانه وتعالى وكرمه في البر والبحر، وأعطاه كل مقومات الحياة لكي تستمر رحلة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا رباط عظيم بين الإنسان وبيئته سواء الفرد أم الجماعة أم الدولة، فالطهارة في الإسلام من الأحداث غسلاً ووضوءاً وتيمماً أمر هام وأساس في العقيدة الإسلامية، ولا تتم العبادة إلا بها، كما سن الإسلام الغسل لصلاة الجمعة والغسل لصلاة العيدين وتعديل الهيئة ونظافة الثياب، والبعد عن كل ما يدعو إلى النفور عند لقاء الآخرين وما تتأذى منه الملائكة.

روى مسلم والترمزي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **(الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحانه الله والحمد له تملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك)**.

وفي حديث آخر عن أهمية النظافة بالماء وربطها بالإيمان، قال رسول الله ﷺ: **(تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة)** (رواه الطبراني).

والأطعمة ذات الروائح النفاذة والآثار الغليظة كاللحم والسمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمال نظافتها، فإن التنظف منها ضرورة لحفظ الكرامة الخاصة والآداب العامة.

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الشيطان حساس لحاس، فاحذروه على أنفسكم، من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شئ فلا يلومن إلا نفسه)** (أخرجه الترمزي) (الغَمَرِ: زهومة اللحم وريحته)، والحديث **(نظفوا أفواهكم فإنها طرق القرآن)**.

والنظافة تشمل المادية من القذارة المحسوسة والقذارة المعنوية الناتجة من الفحش والغيبة والنميمة وأكل الحرام وتطهير اللسان من جميع النجاسات.

وقد وردت آثار تفيد وتؤكد على أن الجراثيم إنما تجد مرتعاً خصباً في الأيدي والأفواه غير النظيفة وأوصت بالتحرز من غوائلها.

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثوماً أو بصلاً أن لا يحضر المجتمعات تحرزاً من نتن الأفواه من هذه الأطعمة، حتى لا يؤذي وينفر من حوله، وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة في المسجد عمن تناول هذه الأطعمة.

عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: **(من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلن وليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته)**.

كما أسقط سنة الجماعة الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة، وهذا الأمر فيه صيانة للمريض والسليم على السواء.

ويوصي الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة يقول تعالى: **﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** [الأعراف: ٣١].

واعتنى الإسلام بنظافة المساجد والبيوت وتجميلها وأكد على تخلية البيوت من الفضلات والقمامات؛ حتى لا تكون مصدراً للحشرات وسبباً للعلل، وكان اليهود يفرطون في هذا الأمر فحذر المسلمين من التشبه بهم.

روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود)**.

وأخرج الطبراني في الأوسط برجال ثقات عن أبي هريرة سمعت رسول اللهﷺ يقول: **(من سل سخيمته على طريق من طرق الناس فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)**.

وأخرج الطبراني في الكبير بإسناد حسن للحافظ المنذري عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال: **(الذى آذي المسلمين في طرقهم وجب عليه لعنتهم)** (رواه البيهقي).

فإماطة الأذى ورفعه عن الطريق والاقتصاد في استخدام الماء، والنهي المشدد على من تسول له نفسه بإيذاء البيئة من حوله؛ من قضاء الحاجة إلى عف اليد واللسان تعتبر من الضروريات في الإسلام، كذلك حذر الإسلام من العبث وحسن التعامل مع المياه بجميع مصادرها، وعدم الإسراف في استخدامها؛ لأن الماء الذي جعل الله منه كل شئ حي يعتبر من الموارد النادرة الغالية، فقد شدد الإسلام على من يسيء استخدامه، ولكن الإنسان للأسف رغم هذا التشريع ورغم ندرة المياه الصالحة للشرب؛ حيث تحولت بحيرات عدة وأنهار أكثر عدداً إلى مجاري ميتة لم تعد صالحة للشرب منها، أو أن تستعمل في صناعة أو حتى يستحم فيها؛ لا يزال يمعن في الإساءة إلى بيئته والإخلال بالتوازن فيها، وهذه بطبيعة الحال عكس على الكائنات الحية التي تعمر هذه الأنهار والبحيرات، وكانت تمثل مصدراً هاماً للغذاء، أضف إلى هذا أنه بموت الكائنات الحية حل محلها البكتريا وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة الضارة، وانتقل التلويث إلى ضفاف تلك المصادر مؤثراً فيها

وفيما يعيش عليها من كائنات، حتى باتت المدن والمجتمعات التي تعيش فيها مهددة بهذا الخلل البيئي العنيف، وحتى إن ظهر الآن في بعض الدول ما يعرف بمصانع أو منشآت معالجة المياه؛ وهي أجهزة ومنشآت ضخمة تعتمد على أسس علمية كميائية وتكلف مبالغ باهظة، ولكنها السبيل الوحيد المجدي إلى الآن حسب علمي لمنع زيادة تلويث المياه.

ومن الأمور التي تحمد في هذه المرحلة وجود يقظة كبيرة لاتخاذ الإجراءات والتشريعات القانونية لوقف الاستهتار بمقدرات ومكونات البيئة حول الإنسان، ومن هذه التشريعات الخاصة في بعض البلاد منع المصانع والمؤسسات من تلويث مصادر المياه، وإجبارها على معالجة الماء المستهلك فيها قبل إمراره إلى مجارى المياه الطبيعية. ولا يقتصر التلوث على مصادر المياه العذبة الصالحة لاستعمال الإنسان؛ بل يتعداه إلى البحار والمحيطات، مع إن مياه البحار مالحة ولا يستطيع الإنسان استعمالها مباشرة، إلا أنها مصدر معظم بحار الماء الموجود في الجو، ومنه تتكون السحب وتهطل الأمطار والثلوج وتجرى الأنهار وتتفجر الينابيع، ويصور هذه الحقيقة العلمية في مصادر الماء القرآن الكريم في هذه الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

نماذج من ملوثات البيئة:

ظهرت في هذه المرحلة ملوثات للبيئة نتيجة الحروب والمعارك التي نشبت في منطقة الشرق الأوسط، كما حدث مؤخراً في حرب الخليج حيث تسرب النفط في منطقة الشرق الأوسط من الناقلات العملاقة أو من جراء الكوارث التي تلحق بهذه الناقلات. والنفط يطفو فوق سطح البحر لأنه أقل كثافة من الماء؛ ولأنه قاتل للكائنات الحية بسبب موت (البلانكتون) الهائم على السطح، و(البلانكتون) هذا هو دقائق الكائنات الحية النباتية والحيوانية الهائمة قرب سطح البحر، وهو الغذاء الرئيسي للأسماك والحيوانات البحرية الأخرى، وإلى جانب أهميته كيميائياً مثل استخلاص جزء ثاني أكسيد الكربون من الجو فإنه العامل الهام في بقاء نسب غازات الهواء ثابتة، وفي حالة قتل عدد كبير من هذا (البلانكتون) بالتلويث تختل هذه النسب، وهذا يؤدي إلى خطر داهم في حق الحياة برمتها.

كما لا ننسي أخطار الأسلحة الكيميائية والمواد المشعة ومخلفاتها؛ والتي انتشرت في هذه الفترة بصورة أصبحت تهدد البيئة ومن عليها من جميع الكائنات الحية بشرية وثروة حيوانية ومائية، ولذا ارتفعت أصوات العلماء بمطالبة الإنسان بالكف عن التمادي في ذلك، وتقييد هذه الأبحاث وقصرها على ما ينفع الناس فقط، والتركيز على أهمية البحار والمحيطات؛ لأنها مصادر هامة جداً لثروات عظيمة لم تستغل بعد الاستغلال الصحيح، يقول عز من قائل في كتابه الحكيم: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) الاسراء/١٠٥ وفي التنبيه على اهمية ثروة البحار (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل: ١٤].

وبعد ذلك كله على الإنسان أن يدرك في تعامله مع البيئة أن هذا الكون كله في سمائه وأرضه خاضع لسلطان الله، وإن الله سبحانه وتعالى سخره للإنسان، ومن ثم عليه أن يرقى ويترقى في اكتشاف قوانين هذا الكون عن

طريق العلم الذي أنزل الإسلام أهله منزلة ورثة الأنبياء، وبه كرم الله آدم وذريته وأسجد له ملائكته وفاخر به في الملأ الأعلى.

فالحرص على البيئة في التعامل والرقي في درجة العلم بمكنوناتها والتعامل معها على هذا الأساس، كل هذا يعتبر من الواجبات في الشريعة الإسلامية.

وختاماً لهذه الجولة أقول إن حماية البيئة في الشريعة الإسلامية واجب مقدس فرضه الخالق للإنسان الذي استخلفه فيه، وليس نابعاً من توصيات مؤتمر ينتهي بانفضاضه ولا من صيحة دوى بها صوت عالم ربما بقوة هذا الصوت ولا يصل إلى خافتاً أو ربما لا يصل، بل هو تشريع إلهي ملزم به خلقه ويحاسبهم على تركه أو إهماله؛ لأن البيئة بآياتها المختلفة هي من خلق الخالق الذي خلق كل شئ فقدره تقديراً.